نزول القرآن عند ابن ظَفَر الصقلي في تفسيره ينبوع الحياة
دراسة وصفية

الباحثة/ سلمى بنت محمد بن عبد العزيز الشامخ
باحثة دكتوراه بقسم القرآن الكريم وعلومه
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة القصيم Qassim University

الملخص بالعربي:
تناول البحث دراسة مسألة نزول القرآن عند ابن ظَفَر الصقلي في تفسيره (دراسة وصفية)، ويهدف البحث إلى بيان المسائل القرآنية التي تناولها ابن ظفر الصقلي في نزول القرآن وبيان منهجه فيها وكذلك دراستها على وجه التفصيل مع موازنة لأقواله مع المفسرين حسب منهجية الدراسة، وجاء هذا البحث في ثلاثة مباحث؛ المبحث الأول: الوحي ونزول القرآن، والمبحث الثاني: اول واخر ما نزل على الإطلاق، والمبحث الثالث: أوائل وأواخر مخصوصه فيما نزل من القرآن، ثم ذكر نتائج الدراسة.
كلمات مفتاحية: علوم القرآن – التفسير– الصقلي–ابن ظفر –نزول القرآن– ينبوع الحياة.

Abstract in English:

The research dealt with the study of the issue of the revelation of the Qur'an according to Ibn Dhafar al-Siqilli in his interpretation (a descriptive study). The research aims to clarify the Qur'anic issues that Ibn Dhafar al-Siqilli addressed in the revelation of the Qur'an and to clarify his approach to them, as well as to study them in detail, with a comparison of his statements with the interpreters according to the study methodology. This research came in three sections; the first section: Revelation and the revelation of the Qur'an, the second section: The first and last of what was revealed in general, and the third section: The beginnings and ends of what was revealed in particular from the Qur'an, then the results of the study were mentioned.

Keywords: Qur'anic Sciences - Interpretation - al-Siqilli - Ibn Dhafar - The revelation of the Qur'an - The spring of life.

مقدمة:

الحمد لله الذي علَّم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، إمامنا وقدوتنا نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ أفضل ما تبارى فيه المتنافسون، و أفنيت فيه الأعمار، ووجهت إليه الهمم، هو كتاب الله تعالى ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولما كان الأمر كذلك اعتنى العلماء قديمًا وحديثًا بالقرآن الكريم وبما يتعلق به من علوم، وإسهامهم في تبيان معاني كتاب الله تعالى ، واستنباط أسراره وأحكامه، وكان ممن أدلى بدلوه في ذلك العلامة محمد بن أبي محمد بن ظَفَر المكي الصقلي –رحمه الله– (ت ٥٦٥ ه) وذلك في تفسيره الذي سمَّاه ب"ينبوع الحياة في تفسير القرآن العظيم"، وعلى الرغم من أن كتاب (ينبوع الحياة في تفسير القرآن العظيم) يعدُّ من كتب التفسير؛ إلا أنه حوى عددًا كبيرًا من علوم القرآن.

ولهذا رأيت أن اتناول في بحثي هذا: **نزول القرآن الكريم عند ابن ظَفَر الصقلي في تفسيره ينبوع الحياة (دراسة وصفية).**

مشكلة البحث:

وتضم الأسئلة الآتية:

١. ما منهج ابن ظفَر الصقلي في عرض مسألة نزول القرآن الكريم؟
٢. ما منهج ابن ظفَر الصقلي في الاستدلال على مسألة نزول القرآن الكريم ؟
٣. ما القيمة العلمية لمسألة نزول القرآن الكريم عند ابن ظفَر الصقلي؟

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تحقيق ما يأتي:

١. دراسة منهج ابن ظفَر الصقلي في عرض مسألة نزول القرآن الكريم.
٢. دراسة منهج ابن ظفر الصقلي في الاستدلال على مسألة نزول القرآن الكريم.
٣. بيان القيمة العلمية لمسألة نزول القرآن الكريم عند ابن ظفَر الصقلي.
٤. دراسة مسألة نزول القرآن الكريم في تفسير ابن ظفَر الصقلي على وجه التفصيل.

منهجية البحث:

استخدمت في هذا البحث المنهج الوصفي القائم على الاستقراء والتحليل، إذ تم استقراء تفسير ابن ظفر الصقلي لدراسة مسألة نزول القرآن الكريم.

الدراسات السابقة:

لم أجد بحدود بحثي في الدراسات التفسيرية رسالة علمية تهدف الى ما أهدف إليه وهناك دراسات تتقارب مع درا ستي، وهي كالتالي بالتفصيل:

- منهج ابن ظَفَر الصقلي في التفسير من خلال كتابه (الينبوع) إعداد: صالح عبدالرحمن الفايز، إشراف: عبد العزيز القارئ، رسالة (ماجستير) الجامعة الإسلامية، نوقشت (١٤١٠ ه)، وهو من اسمه اختص بمنهج ابن ظَفَر، بينما كان تعرضه لعلوم القرآن وبالتحديد مسألة نزول القرآن الكريم في هذه الدراسة بشكل يسير جدً ا، ولم يجعلها محورًا من محاور الدراسة، وهذا داعم للبحث والتوسع في جمع ودراسة مسألة نزول القرآن الكريم عند ابن
ظَفَر، وقد أوصى بدراسة تلك العلوم عند ابن ظَفَر.
- ابن ظَفَر ومنهجه في تفسيره، للباحث: حسنين السعيد حسنين، بحث محكم في مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة بجامعة الأزهر العدد (١٦)، الصادر ٢٠١٠ ، ١٤٣١ ه، وهو بحث قصير مختص في منهج ابن ظَفَر في التفسير بينما تختص دراستي بمسألة نزول القرآن الكريم.

وانتظم هذا البحث في مقدمة وتمهيد وثلاث مباحث وخاتمة وفهارس على النحو التالي:

المقدمة: وفيها أهمية البحث وتحديد مشكلته وأهدافه، والدراسات السابقة، ومنهج البحث وخطته.

التمهيد، وفيه:

أولًا : التعريف بابن ظفر الصقلي.

ثانيا: التعريف بتفسيره (ينبوع الحياة).

المبحث الأول: الوحي ونزول القرآن.

المطلب الأول: الوحي.

المطلب الثاني: نزول القرآن.

المبحث الثاني: اول واخر ما نزل على الإطلاق.

المطلب الأول: اول ما نزل.

المطلب الثاني: اخر ما نزل.

المبحث الثالث: أوائل وأواخر مخصوصه فيما نزل من القرآن.

المطلب الأول: أوائل مخصوصه فيما نزل من القرآن.

المطلب الثاني: أواخر مخصوصه فيما نزل من القرآن.

الخاتمة: وفيها ذكرت أهم نتائج هذا البحث وتوصياته.

فهرس المصادر والمراجع.

وأسأل الله أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله في ميزان حسناتي، وأن يرزقني الإخلاص في القول والعمل، إنه جواد كريم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آلـــه وصـــحبه أجمعين.

تمهيد:

أولًا : التعريف بابن ظفر الصقلي.

نسبه ونشأته:

اسمه محمد باتفاق، واختلف في اسم أبيه، فمن قائل اسمه محمد، ومن قائل اسمه عبد الله بن محمد بن ظَفَر[١] الصقلي[٢]، "يكني بـ"أبي عبد الله"، و يلقب ابن ظفر بـ"حجة الدين"، ولد ابن ظفر بصقلية، وقيل بمكة حرسها الله، في سنة (٤٩٧هـ)

تلقى تعليمه الأول في مكة، ثم ارتحل إلى البلدان الأخرى للأخذ من علمائها وحلقاتهم.

من ابرز شيوخه: أبو بكر بن العربي، و**من ابرز تلاميذه:** ابن قدامة المقدسي.

وفاته: توفي ابن ظفر في حماة سنة (٥٦٥هـ)" [٣].

ثانيا: التعريف بتفسيره (ينبوع الحياة).

اسم الكتاب: "ينبوع الحياة"، وهو في تفسير القرآن الكريم، كما يظهر ذلك على الورقة الأخيرة من الجزء الأول والجزء الثالث من المخطوط.

وقد نسبه إلى ابن ظفر الصقلي جُلُّ من تَرجم له[٤]، وهو من كتب التفسير المطولة، اعتنى بالمأثور وعلوم القرآن واللغة.

(١) ظَفَر بفتح الظاء والفاء، وقال الصفدي في الوافي بالوفيات ١٢٦/١: «رأيت بعضهم يقول: ابن ظُفُر بضم الظاء والفاء، والأول أشهر، والله أعلم».

(٢) انظر: الوافي بالوفيات ١٢٥/١، طبقات المفسرين للداودي ٢٤٦/٢.

والصقلي: نسبة إلى جزيرة صقلية، وهي جزيرة مثلثة الشكل معروفة مشهورة في البحر الأبيض المتوسط، وهي الآن دولة مستقلة، قسم منها يوناني، وقسم تركي، وهي كثيرة الأشجار، وبها أنهار وخضرة وفواكه ومعادن كثيرة، وفيها جبل عظيم يسمى جبل النار. انظر: المسالك والممالك ٤٨٥/١، رحلة ابن جبير ٢٩٦/١.

(٣) انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢٤٦/٢، الوافي بالوفيات ١٢٥/١.

(٤) انظر: الوافي بالوفيات ١٢٥/١، طبقات المفسرين للداودي ٢٤٦/٢.

نزول القرآن عند ابن ظَفَر:

المبحث الأول: الوحي ونزول القرآن.

المطلب الأول: الوحي.

أولاً: مفهوم الوحي:

- **الوحي في اللغة عند ابن ظفر:**

أشار ابن ظفر إلى أنّ أصل الوحي الإشارة السريعة، فقال: «والوحي: الإشارة»[١]، وبيّن أنّ الوحي يطلَق في اللغة ويراد به: الإلهام والإفهام والكلام والرؤيا، فقال: «الوحي إلهام، وإفهام، وكلام، ورؤيا منام، وأصله: الإشارة السريعة»[٢].

وما ذكره ابن ظفر من معاني الوحي في اللغة، أشار إليه جلّ المفسّرين وأهل اللغة وغيرهم[٣]، قال الراغب: «أصل الوحي: الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوتٍ مجردٍ عن التركيب، وبإشارةٍ ببعض الجوارح، وبالكتابة»[٤].

والخلاصة في مفهوم الوحي: أنه الإعلام الخفي السريع، ويكون بالإشارة، أو الكتابة أو الرسالة، أو الإلهام الغريزي أو غيره، وقد دلّت الآيات القرآنيّة على هذه الإطلاقات[٥].

- **الوحي في الاصطلاح:**

أمّا الوحي في الاصطلاح: فالظاهر أنّه لا يختلف كثيرًا عن المعنى اللغوي، والفرق بينهما هو الفرق بين العام والخاص، فالوحي في اللغة عام يشمل كلّ إعلام خفي سريع، بينما الوحي في الاصطلاح الشرعي لا يتناول إلَّا ما كان من الله لنبي من الأنبياء، فالمعنى الشرعي للوحي أخصّ من المعنى اللغوي لخصوص مصدره وموردِه، فخصّ المصدر بأنه من الله، وخص المورد بالأنبياء[٦].

---

(١) ينبوع الحياة، سورة مريم.

(٢) ينبوع الحياة، ٣، سورة النحل.

(٣) انظر: جامع البيان ٤٠٥/٦، وجمهرة اللغة ٥٧٦/١، والزاهر في معاني كلمات الناس ٣٤١/٢، ومعاني القرآن للنحاس ٨٤/٤، والمحرر الوجيز ٤٠٦/٣.

(٤) المفردات في غريب القرآن ص٨٥٨.

(٥) انظر: الوحي والقرآن الكريم لمحمد حسين الذهبي، مكتبة الوهبة، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص٧، والمدخل لدراسة القرآن، لمحمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، مكتبه السنة – القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، ص٨٤.

(٦) انظر: الوحي والقرآن الكريم لمحمد حسين الذهبي، مكتبة الوهبة، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص٧، والمدخل لدراسة القرآن، لمحمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، مكتبه السنة – القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، ص٨٤.

فإذا أُطلق الوحي وأريد به المصدر، فلعل أقرب التعاريف للوحي في الاصطلاح هو: إعلام الله تعالى لمن اصطفاه من عباده بطرق خفية سريعة، وإذا أريد به اسم المفعول (الموحى) فإنه يقال: هو ما أنزله الله تعالى على أنبيائه، وعرَّفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحكم(١).

ثانيًا: اشتمال مفهوم الوحي على القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة

بيّن ابن ظفر أنّ مفهوم الوحي يشتمل السنة النبويّة أيضًا؛ حيث إنّ السنة مبيِّنةٌ ومفسِّرةٌ للآيات، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ **[النجم: ٤]**

«قيل: "الهاء" ضمير القرآن، والوجه أن يعم السنة لقول النبي ﷺ: «أوتيت الكتاب ومثله معه»(٢) وسنته هي بيان الكتاب»(٣).

وقال أيضًا: «وقد أوحي إليه بالسنة أيضًا، حيث أن الرسول ﷺ أوتي أحكامًا مثل أحكامه؛ «فحرم رسول الله ﷺ أكل كل ذي مخلب من الطير، وكل ذي ناب من السباع»(٤)، وحرم الخبائث المستقذرات، والسِمَامَ المهلكات، وما خالطته المنجسات»(٥).

وقد أكّد القرآن الكريم على أنّ كلّ ما ينطق به النبي ﷺ في مقام التشريع، وحيٌ من عند الله ﷻ، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ **[النجم: ٣-٤]**، وذكر جُلُّ المفسّرين وغيرُهم أنّ مفهوم الوحي يشمل القرآن والسنةَ، فكان جبريل ﷺ ينزل بالسنة النبويّة، كما ينزل بالقرآن الكريم، فكل ما ثبت بالسنة؛ فكأنه ثابتٌ في الكتاب(٦).

ثالثًا: صور مجيء جبريل ﷺ بالوحي:

أشار ابن ظفر إلى بعض صور مجيء جبريل ﷺ بالوحي إلى رسول الله ﷺ، منها:

أ/أن يأتي جبريل في صورته التي خلقه الله عليها:

قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾ **[النجم: ٦]**«هو جبريل ﷺ، استوى في الهواء، ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾﴾ **[النجم: ٧]** على كرسي، روي لنا من حديث جابر بن عبد

(١) انظر: عمدة القاري ١٤/١، علوم القرآن لنور الدين عتر ص١٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث المقدام بن معدي كرب ٤١٠/٢٨، برقم (١٧١٧٤).

(٣) ينبوع الحياة ٥، سورة النجم.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير ١٥٣٤/٣، برقم (١٩٣٤)، عن ابن عباس ﷺ، ولفظه: «نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع، وعن كل ذي مخلب من الطير».

(٥) ينبوع الحياة سورة الانعام ١٤٥.

(٦) انظر: التفسير البسيط ٥٠٠/٨، وتفسير القرآن للسمعاني ١٠٢/٢، والجامع لأحكام القرآن ٨٥/١٧، والإتقان ٦٠/٣.

الله أنه قال: قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «فبينما أنا أمشي، إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء، جالسٌ على كرسيٍ بين السماء والأرض، قال: فجئت منه رعبًا، فرجعت فقلت: زملوني زملوني»(١)، فقوله: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ﴾ضمير جبريل، وقيل: أي استوى محمدٌ وجبريل، فالتقدير: استوى شديد القوى، وصاحبكم بالأفق الأعلى»(٢).

وقد بيّنت الأحاديثُ صفةَ مجيء جبريل ﷺ بالوحي، من ذلك ما جاء عن مسروق، أنّه قال: قلت لعائشة ﵂: فأين قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ **[النجم:٨-٩]**، قالت: «ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل، وإنه أتاه هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسد الأفق»(٣)، وعن ابن مسعود ﵁: «أنّ النبي ﷺ رأى جبريلَ في صورته له ستمائة جَناح»(٤).

فهذه الأحاديث وغيرها دلّت على أنّ جبريل ﷺ كان يأتي النبي ﷺ على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها عند نزول الوحي، وأشار جُلّ المفسّرين أنّ النبي ﷺ رأى جبريل ﷺ على صورته التي خلقه الله فيها(٥).

ب/ أن يأتي جبريل ﷺ في صورة رجل:

أشار ابن ظفر إلى صورة أخرى من صور مجيء جبريل بالوحي، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ **[النجم:٨]**«إنّ جبريل ﷺ تدلى من الأفق، فدنا من محمد ﷺ وهو بجبل حراء، حتى إذا كان منه قاب قوسين أو أدنى، أوحى إليه عن الله ما أوحى، وقد تحول عن الصورة التي رآه عليها إذ كان بالأفق الأعلى؛ إلى الصورة التي كان يأتيه بها قبل ذلك، وهي صورة رجل»(٦).

وقد جاء عن عائشة ﵂، أنّها قالت: «أنّ الحارث بن هشام ﵁ سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب وثيابك فطهر ١٦٢/٦، برقم (٤٩٢٥).

(٢) ينبوع الحياة ٥، سورة النجم.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء آمين، ١١٥/٤، برقم (٣٢٣٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه ١١٥/٤، برقم (٣٢٣٢)

(٥) انظر: جامع البيان ٥٠٠/٢٢، والكشف والبيان ١٣٧/٩، وتفسير السمرقندي ٣٥٩/٣، وتفسير القرآن للسمعاني ٢٨٥/٥، ومعالم التنزيل ٤٠٠/٧، وتفسير القرآن العظيم ٤٤٤/٧.

(٦) ينبوع الحياة ٥، سورة النجم.

عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا»(١). وأشار جُلُّ المفسّرين إلى أنّ جبريل ﷺ كان يأتي النبي ﷺ أحيانًا في صور رجل(٢) من الصحابة(٣).

والذي عليه المحقّقون من أهل العلم أنّ ما ورد من مجيء جبريل ﷺ بالوحي، إنّما هو في وحي السنة، لا في وحي القرآن، كحديث جبريل المشهور(٤)، وسؤاله النبي ﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة وأشراطها(٥).

رابعاً: الأحوال المصاحبة للوحي:

أشار ابن ظفر إلى بعض الأحوال المصاحبة للوحي عند نزوله على النبي ﷺ، وهي:

١ –ثقل جسمه ﷺ:

قال: «كان النبي إذا غشيه الوحي ثقل على جسمه ما غشيه من أمر الله»(٦).

وقال في موضع آخر: «عن زيد بن ثابت ﷺ أنه قال: «كنت إلى جنب رسول الله ﷺ فغشيته السكينة، فوقعت فخذ رسول الله ﷺ على فخذي، فما وجدت ثقل شيء أثقل من فخذ رسول الله ﷺ، ثم سُرِّي عنه، فقال لي: «اكتب»، فكتبت في كتف: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾ **[النساء:٩٥]** إلى آخر الآية، فقام ابن أم مكتوم – وكان رجلاً أعمى، لما سمع فضيلة المجاهدين– فقال: يا رسول الله، كيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟ فلما قضى كلامه غشيت رسول الله ﷺ السكينة، فوقعت فخذه على فخذي، ووجدت من ثقلها في المرة الثانية كما وجدت في المرة الأولى، ثم سُرِّي عن رسول الله ﷺ، فقال: «اقرأ يا زيد»، فقرأت: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، فقال النبي ﷺ: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾، الآية كلها»(٧)،(٨).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١/٦، برقم (٢).

(٢) يشير إلى ما أخرجه أحمد في مسنده، مسند النساء، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق ﷺ ٤٢/٢٦، برقم (٢٥٠٩٧)، وابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، ذكر وصف دعاء سعد بن معاذ ١٥/٤٩٨، برقم (٧٠٢٨).

(٣) انظر: جامع البيان ٢٤/٢٦٠، ومعاني القرآن للزجاج ٥/٧٠، وتفسير السمرقندي ١/٤٣٦، ومعالم التنزيل ٣/١٢٩، والمحرر الوجيز ٤/٩، وزاد المسير ٤/١٨٤، والجامع لأحكام القرآن ١٧/٨٨.

(٤) يشير إلى ما أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة ١/٣٦، برقم (٨) عن ابن عمر ﷺ.

(٥) انظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم ص٦٥، والمحرر في علوم القرآن ص٦٥.

(٦) ينبوع الحياة سورة المزمل.

(٧) أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار ٣٥/٥١٨، برقم (٢١٦٦٤). قلت: وله أصل في الصحيح، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر ٤/٢٥، برقم (٢٨٣٢).

(٨) ينبوع الحياة٢، سورة النساء.

٢-تحدر العرق منه ﷺ:

أشار ابن ظفر إلى هذه الحالة عند تفسير سورة المزمل، ونقل الحديث المروي عن عائشة ﵂، أنّها أخبرت: «أن النبي ﷺ كان إذا غشيه الوحي تحدَّر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي»(١)،(٢)، فقد وصفت عائشة ﵂ ما كان يصيب رسول الله ﷺ من شدة، حتى إنّ جبينه ﷺ يتفصّد عَرقًا في اليوم الشديد البرد، فقالت: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا»(٣)، وفيه دلالة واضحة على شدة التعب والكرب عند نزول الوحي، وكثرة التعرّق في شدة البرد، يشعر بوجود أمر طارئ زائد على الطباع البشريّة(٤).

وقد اتفق العلماء على وقوع هذه الحالة والتي قبلها، ممّا كان يعانيه النبي ﷺ من شدة وكرب بسبب ثقل الوحي عليه(٥)، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ **[المزمل:٥]**، قال ابن إسحاق: «وللنبوة أثقال ومؤنة، لا يحملهما ولا يستطيع لها إلّا أهل القوة والعزم من الرسل بعون الله ﷻ»(٦)، والثقل الوارد في الآية على حقيقته، لأنّ الله تعالى وصفه بأنه قول ثقيل، فهو ثقيل محمله ثقيل العمل بحدوده وفرائضه، فالمولى تبارك وتعالى كان يقلب على نبيّه ﷺ هذه الأحوال عند نزول الوحي زيادة في الاعتبار، وقوة في الاستبصار(٧).

المطلب الثاني: كيفية نزول القرآن.

أولا: أحوال نزول القرآن:

أشار ابن ظفر إلى أنّ القرآن الكريم نزل جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرّقًا حسب الوقائع والأحداث، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١﴾ **[القدر:١]**، المنزَّل هو القرآن، نزل به الروح الأمين، وقال ابن عباس: «أنزل

---

(١) جزء من حديث طويل، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا ١٧٧/٣، برقم (٢٦٦١)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك.

(٢) ينبوع الحياة ٥، سورة المزمل.

(٣) جزء من حديث طويل، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ٦/١، برقم (٢).

(٤) انظر: فتح الباري لابن حجر ٢١/١.

(٥) انظر: الكشف والبيان ٦٠/١٠، وتفسير السمرقندي ٥٠٩/٣، ومعالم التنزيل ٢٥٢/٨، وزاد المسير ٣٥٣/٤، والجامع لأحكام القرآن ٣٩/١٩، وتفسير القرآن العظيم ٢٥١/٨، والبرهان في علوم القرآن ٢٢٩/١.

(٦) الروض الأنف ٢٥٢/٢.

(٧) انظر: جامع البيان ٦٨٢/٢٣، والقبس في شرح موطأ مالك بن أنس ص٤٠٣، والتسهيل لعلوم التنزيل ٤٢٣/٢.

القرآن جملةً واحدةً في ليلة القدر إلى سماء الدنيا، فكان بموقع النجوم، فكان الله ينزله على رسوله بعضه في إثر بعض»[١] ... وقال إبراهيم النخعي: «أنزل على جبريل جملةً، فكان جبريل يأتي به النبي ﷺ نجومًا»[٢]، وهذه الآية بيان ثانٍ لقوله سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]»[٣].

ونقل عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ **[الواقعة:٧٥]**، قول ابن عباس: «أقسم الله بنزول القرآن نجومًا، وفي لفظ، أقسم بنجوم القرآن، قال: ونزل إلى السماء الدنيا جميعًا، ثم نزل على النبي نجوماً»[٤]،[٥].

وقال أيضًا في مطلع تفسير سورة النجم عند قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ **[النجم:١]** «أقسم الله بالقرآن، إذا نزل نجومًا يعني مفرقاً»[٦].

وقد اكتفى ابن ظفر بذكر القول المشهور في مسألة نزول القرآن الكريم دون الإشارة إلى الأقوال الأخرى في المسألة، بينما اختلف العلماء في نزول القرآن الكريم على أربعة أقوال:

الأوّل: أنّ القرآن الكريم نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم نزل منجمًا مفرّقًا على النبي ﷺ، واستدلّ أصحاب هذا القول بأدلة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ **[القدر:١]**، وقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ **[الإسراء:١٠٦]**[٧]، قال ابن عباس ﷺ: «إنه أنزل في رمضان وفي ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رسلًا في الشهور والأيام»[٨].

---

(١) أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن، باب كيف أنزل القرآن؟ وفي كم أنزل؟ ص٧٢، برقم (١١٨)، والطبري في تفسيره. وصحح الأثر الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه – تكملة التفسير ٣١٥/٧، برقم (١٩٥٧)، والسيوطي في الدر المنثور ٣٩٩/٧.

(٣) ينبوع الحياة، سورة القدر.

(٤) أخرج نحوه ابن أبي حاتم في تفسيره ٤٢٠/١٠، برقم (١١٧٢).

(٥) ينبوع الحياة، سورة الواقعة.

(٦) ينبوع الحياة، سورة النجم.

(٧) انظر: الكشف والبيان٦٨/٢، وجامع البيان٤٤٥/٣، والنكت والعيون٢٤٠/١، والجامع لأحكام القرآن٦٠/١، والمرشد الوجيز ١٠/١، والبرهان في علوم القرآن٢٢٨/١.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره ١٩١/٣، وابن أبي حاتم في تفسيره ١٦٥/٢، برقم (٧٣٠). وضعف الأثر المحقق في تفسير ابن أبي حاتم ١٦٥/٢، تحت رقم (٧٣٠) لأجل السدي. قلت: إسناد ابن أبي حاتم حسن، فجميع رجاله إما صدوق أو ثقات، وإسماعيل السدي صدوق يهم – كما في التقريب ص١٠٨–.

القول الثاني: أنّ القرآن ابتدئ نزوله في ليلة القدر ثم تتابع نزوله منجّمًا في أوقات مختلفة من سائر الأوقات في قرابة ثلاث وعشرين سنة، واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ **[البقرة:١٨٥]**، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ **[القدر:١]**[(١)].

القول الثالث: أنّ القرآن أنزل إلى السماء الدنيا في عشرين ليلة قدر، ثم نزل منجّمًا مدة بعثة النبي ﷺ[(٢)]، وهذا القول ضعيف ولا دليل عليه، فقد أورده ابن الأنباري من طريق ضعيفة، ومنقطعة كما قاله ابن حجر[(٣)].

القول الرابع: أنّ القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ، ثم نجّمته الحفظة على جبريل في عشرين ليلة، ونجّمه جبريل على النبي ﷺ في عشرين سنة[(٤)]، وقد ضعّف بعض العلماء هذا القول وأنكره، لأنّ جبريل عليه السلام ليس بينه وبين الله واسطة، كما أنّه ليس بين جبريل ومحمد ﷺ واسطة، ويردّه أيضًا ما قد صحّ من الآثار عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ القرآن نزل جملة إلى السماء الدنيا في الليلة المباركة[(٥)].

والراجح –والله أعلم– أنّ القرآن الكريم نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرّقًا حسب الوقائع والأسباب في ثلاث وعشرين سنة، وقد حصل الاتفاق والإجماع على نزول القرآن الكريم على هذه الكيفية، وتشهد لصحة هذا القول الآثار الصحيحة الواردة عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولها حكم الرفع؛ لأنّها في الأمور الغيبية التي لا مجال للاجتهاد فيها[(٦)].

ثانياً: الحكمة من نزول القرآن مفرّقًا:

إنّ لنزول القرآن الكريم على النبي ﷺ منجّمًا ومفرّقًا حِكم عظيمة، وفوائد كثيرة، أشار ابن ظفر إلى بعضها:

١– تيسير الفهم والعمل بأحكام القرآن، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦﴾ **[الإسراء:١٠٦]** «أي فرقنا إنزاله، ثم علل تفريق الإنزال في قوله تعالى: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾، وفي ذلك: فهمهم له،

(١) انظر: النكت والعيون ٢٤٠/١، والجامع لأحكام القرآن ٢٩٧/٢، والبرهان في علوم القرآن ٢٢٨/١، والمرشد الوجيز ١٥/١.

(٢) انظر: وجامع البيان، ٤٤٧/٣، ومفاتيح الغيب ٢٥٣/٥، والمرشد الوجيز ١٩/١، والإتقان ١٤٨/١.

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر ٩/٤، ونزول القرآن الكريم للشايع ص٢٣.

(٤) انظر: النكت والعيون ٣١١/٦، والمرشد الوجيز ١٩/١، والإتقان/١٤٩.

(٥) انظر: أحكام القرآن لابن العربي/٤٢٧، والمرشد الوجيز ٢٠/١، وفتح الباري لابن حجر ٤/٩.

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٩٨/٢، والإتقان ١٤٦/١، وفتح الباري لابن حجر ٤/٩، ونزول القرآن الكريم للشايع ص٢٧،

ورسوخهم في العمل بأحكامه، والعلم بتأويله»[١]، وقد أشار إلى هذه الحكمة عند تفسير الآية الكريمة جمعٌ من المفسّرين[٢].

٢- تثبيت فؤاد النبي ﷺ، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ **[الفرقان: ٣٢]**

«أي: هكذا فَرَقْنا إنزاله لنثبّت به فؤادك، قال ابن عباس: ليثبت في قلبك»[٣]، وهذه الآية صريحة في بيان الحكمة من نزول القرآن مفرّقًا، وقد أشار إلى هذه الحكمة عامّةُ المفسّرين[٤]، وهي الحكمة العُظمى والغاية الكبرى من نزول القرآن منجمًا، فإذا تجدّد الوحي في كلّ أمر وحادثةٍ، كان ذلك أقوى لقلب النبي ﷺ، وأشدّ عناية بالمرسل إليه[٥]

وهناك حِكمٌ أخرى ذكرها بعض العلماء، منها: التدريج في تشريع الأحكام، والعلم بالناسخ والمنسوخ، والإجابة عن أسئلة العباد، والإنكار على بعض أفعالهم وأقوالهم[٦].

(١) ينبوع الحياة ٣، سورة الإسراء.

(٢) انظر: جامع البيان١٧/٥٧٥، ومعاني القرآن للزجاج ٣/٢٦٤، وأحكام القرآن للجصاص٥/٣٥، وتفسير السمرقندي٢/٣٣٢، ومفاتيح الغيب٢١/٤١٧.

(٣) ينبوع الحياة، سورة الفرقان.

(٤) انظر: وجامع البيان١٩/٢٦٦، والكشف والبيان٧/١٣٢، وتفسير القرآن للسمعاني ٢/١٣٨، والكشاف٣/٢٧٨، وتفسير القرآن العظيم٦/١٠٩.

(٥) انظر: التفسير الوسيط للواحدي ٣/٣٤٠، والمرشد الوجيز ١/٢٨.

(٦) انظر: تفسير السمرقندي٢/٥٣٧، ومعالم التنزيل ٦/٨٣، والبرهان في علوم القرآن ١/٢٣١، والزيادة والإحسان في علوم القرآن ١/١٥٧، والوحي والقرآن الكريم لمحمد الذهبي ص١٠٩.

المبحث الثاني: أول وآخر ما نزل على الإطلاق.

المطلب الأول: أول ما نزل من القرآن على الاطلاق.

اعتنى العلماء قديمًا وحديثًا بمعرفة أوّل ما نزل من القرآن الكريم على الإطلاق، وتعدّدت الأقوال وتباينت الآراء في المسألة، إلّا أنّ ابن ظفر **حسم الخلاف في تحديد أوّل ما نزل** في سورتين هما: سورة العلق، وسورة المدثر، وصحّح القول بأنّ أوّل ما نزل من القرآن صدر سورة العلق، وهو قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ **[العلق:١]**، مستدلاً بحديث عائشة ﵂ في الصحيحين وغيرهما، فقال: «أنه اختُلِف في تعيين أول ما نزل، فقيل: أربع آيات أو خمس من سورة المدثر، وقيل: خمس آيات من أول سورة العلق، وهو الصحيح -إن شاء الله-، وقد سلف حديث روته أم المؤمنين عائشة ﵂ في سورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾ **[المزمل:١]**»[(١)].

«روي لنا من حديث عروة عن عائشة ﵂ أنها أخبرته فقالت: «كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي أولات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ»، قال: «قلت: ما أنا بقارئ»، قال: «فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ **[العلق:١-٥]**، فرجع بها الرسول ﷺ ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: «زملوني زملوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع .. الحديث»[(٢)]. فوصف الله سبحانه رسوله ﷺ بفعله، وناداه به قائلاً: يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ **[المزمل:١]**، فلما أرسله خاطبه بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ **[المائدة:٤١]**، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ **[الأنفال:٦٤]**»[(٣)].

---

(١) ينبوع الحياة٥، سورة المزمل.

(٢) جزء من حديث طويل، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ٧/١، برقم (٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١٣٩/١، برقم (١٦٠)، وهذا لفظ مسلم.

(٣) ينبوع الحياة ٥، سورة المزمل.

وعضد ابن ظفر اختياره بأنه قول عدد من الصحابة رضوان الله عليهم فقال: «وقال ابن عباس، وأبو موسى الأشعري، وعائشة وغيرهم: هي أوّل شيء نزل من القرآن»(١).

وذكر **القول الثاني** بأنّ أوّل ما نزل من القرآن صدر سورة المدثر، وهو المروي عن جابر بن عبد الله ﷺ، فقال: «ونذكر هاهنا حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله قال: سألت جابر بن عبدالله أي القرآن أنزل قبل؟ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ **[المدثر:١]**، فقلت: أو ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ **[العلق:١]**؟ فقال جابرٌ: أحدِّثكم ما حدَّثنا رسول الله ﷺ، فقال: «جاورت بحراء شهرا فلما قضيت جِوَاري نزلت فاستبطنت بطن الوادي، فَنُودِيت فنظرت أمامي، وخلفي وعن يميني، وعن شمالي فلم، أر أحدا، ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء -يعني جبريل ﷺ- وفي لفظ آخر: «فإذا الملك الَّذِي جَاءَنِي بحراء جالسا على كرسي بين السماء والأرض» -ثم نعود إلى اللفظ الأول- قال: «فأخذتني رجفة شديدة، فأتيتُ خديجة فقلت: دثروني، فدثروني، فصبوا علي ماء فأنزل الله عليّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾ **[المدثر:١-٤]**، وقرأ الآيات الأربع»(٢).

وحمل حديث جابر ﷺ على أنّ أول ما نزل بعد فترة الوحي سورة المدثر، فقال: «فقوله: «الذي جاءني بحراء جالسًا» يعني به ما تضمنه الحديث المذكور في سورة المزمل، ويدلّ على هذا أنّ في أوّل حديث جابر المذكور قال: قال رسول الله ﷺ، وهو يحدث عن فترة الوحي، ففترة الوحي تأخره عنه بعد نزول الآيات من أوّل سورة العلق»(٣).

وقد ذهب جمهور العلماء سلفًا وخلفًا إلى ما اختاره ابن ظفر في المسألة، وهو أوّل ما نزل من القرآن على الإطلاق خمس آيات من أوّل سورة العلق(٤).

والقول الثالث: أنّ أوّل ما نزل من القرآن سورة الفاتحة(٥)، وقد عزاه الزمخشري إلى أكثر المفسّرين(٦)، وأجاب ابن حجر بأنّه لم يقل به إلّا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال

---

(١) ينبوع الحياة ٥، سورة العلق.

(٢) جزء من حديث طويل، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ١٦١/٦، برقم (٤٩٢٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١٤٤/١، برقم (١٦١)، واللفظ لمسلم.

(٣) ينبوع الحياة ٥، سورة العلق

(٤) جامع البيان٥١٩/٢٤، والمحرر الوجيز ٥٠١/٥، وأحكام القرآن لابن العربي ٤١٨/٤، وزاد المسير ١٣/١، والجامع لأحكام القرآن١١٧/٢٠، والتسهيل في علوم التنزيل٤٩٦/٢، والبرهان في علوم القرآن١٩٣/١، والإتقان٩١/١، ونزول القرآن الكريم للشايع ص٥٤.

(٥) انظر: جامع البيان١١٣/١، والمحرر الوجيز ٥٠١/٥، وأحكام القرآن لابن العربي٤١٨/٤، والجامع لأحكام القرآن١١٧/٢٠.

(٦) انظر: الكشاف ٧٧٥/٤.

بالأوّل[1]، واستُدّل لهذا القول بأنّ رسول الله ﷺ قال لخديجة ﵂: «إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد يا محمد، فأنطلق هاربًا في الأرض»، فقال: لا تفعل، فإذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه: يا محمد، قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ **[الفاتحة:١-٢]**، حتى بلغ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ **[الفاتحة:٧]**»[2]، فهو حديث مرسل لا تقوم به الحجّة، والله أعلم[3].

والقول الرابع: أوّل ما نزل من القرآن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ **[الفاتحة:١]**[4]، فعن عكرمة، والحسن قالا: «أوّل ما نزل من القرآن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ **[الفاتحة:١]**، فهو أوّل ما نزل من القرآن بمكة، وأوّل سورة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ **[العلق:١]**»[5]، وهو حديث مرسل أيضًا لا تقوم به الحجّة، ولا يقوى على معارضة حديث عائشة المرفوع[6]، بل قال السيوطي: إنّ هذا القول لا يُعدّ قولاً برأسه، لأنّ من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها، وعلى هذا فهي أوّل آية نزلت على الإطلاق[7].

المطلب الثاني: آخر ما نزل من القرآن عمومًا.

تكلم العلماء عن آخر ما نزل من سور القرآن وآياته، وتناول ذلك المفسرون، وقد أشار ابن ظفر إلى ما قيل فيه أنّه آخر ما نزل من القرآن الكريم عمومًا، فقال: «وآيات تحريم الربا والوعيد عليه متأخرات النزول -أي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨﴾ **[البقرة:٢٧٨]**، وقوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ **[البقرة:٢٨١]**، من أواخر ما أنزل. ورُوِي لي أن عمر كرمه الله قال: «إنّ آية الربا من آخر ما نزل على النبي ﷺ، وأنه مات ولم يفسرها، فاتركوا الربا والريبة»[8]،[9].

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر ٧١٤/٨.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السير ص١٣٢، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب المغازي، ما جاء في مبعث النبي ﷺ ٣٢٩/٧، برقم (٣٦٥٥٥)، /٤٢، برقم (٣٥٥٧)، والبيهقي في دلائل النبوة، جماع أبواب المبعث، باب أول سورة نزلت من القرآن ١٥٨/٢، كلهم عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل مرسلا.

وأعل الحديث بالانقطاع البيهقي في دلائل النبوة ١٥٩/٢، وبالإرسال الحافظ في العجاب ٢٢٤/١، والسيوطي في الإتقان ٩٤/١، والمحقق في مصنف ابن أبي شيبة ٣٥٧/٢٠، بحاشية رقم (١٦)، ٤٤/٣٠، بحاشية رقم (١)، لإرساله، فالحديث ضعيف.

(٣) انظر: دلائل النبوة للبيهقي ١٥٩/٢، والجامع لأحكام القرآن ١١٦/١، وفتح الباري لابن حجر ٧١٩/٨.

(٤) انظر: أسباب النزول للواحدي ص١١، والعجاب في بيان الأسباب ٢٢٣/١، والبرهان في علوم القرآن ٢٠٧/١.

(٥) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص١٣، برقم (٣)، ونقله الحافظ في العجاب ٢٢٣/١، والسيوطي في الإتقان ٩٥/١.

وأعل الأثر بالإرسال الحافظ في العجاب ٢٢٣/١، والزرقاني في مناهل العرفان ٩٦/١، والمحقق في أسباب النزول ص١٣، تحت رقم (٣)، فهو ضعيف، والله أعلم.

(٦) انظر: العجاب في بيان الأسباب ٢٢٣/١، والمدخل لدراسة القرآن الكريم ص١١٦.

(٧) انظر: الإتقان ٩٥/١.

(٨) أخرجه أحمد في مسنده، مسند الخلفاء الراشدين، مسند عمر بن الخطاب ٣٦١/١، برقم (٢٤٦)، والمروزي في السنة، ذكر السنن التي هي تفسير لما افتراه الله مجملا ص٥٨، برقم (١٩٧)، والبيهقي في دلائل النبوة، باب آخر سورة نزلت وآخر آية أنزلت ١٣٨/٧

(٩) ينبوع الحياة١، سورة البقرة.

وقال أيضًا: «روى أبو صالح والضحاك: أنّ ابن عباس ﷺ قال: «آخر شيء نزل من القرآن: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١]»[١]، وزاد أبو صالح في روايته: «وكان بين نزولها وبين موت النبي ﷺ واحد وثمانون يومًا»[٢]، وقال ابن جريج[٣] وابن سليمان[٤]: «تسع ليال»، وقال ابن جبير: «سبع ليال»[٥].

وروي لنا ما رواه البخاري بإسناده إلى ابن عباس قال: «آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا»[٦]، فلعله يعني آخر آية تضمنت حكمًا شرعيًّا»[٧].

وقال عند تفسير سورة النصر: «فهذه السورة من أواخر ما نزل على النبي ﷺ. قال ابن عباس: «لما نزلت دعا النبي ﷺ فاطمة كرمها الله، فقال لها: «أي بُنَيَّة، إنه قد نُعِيَتْ إلى أبيك نفسُهُ» فبكت»[٨] ... ومما صحّ وثبت: «أنه ﷺ أسرَّ إليها أن نفسه نُعيت إليه فبكت، ثم أسَر إليها أنها أول أهل بيته لحاقاً به فضحكت»[٩]،[١٠].

وقد اختلف العلماء في آخر ما نزل من القرآن الكريم على الإطلاق على أقوال:

الأوّل: آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١]، وقد رُوي هذا عن ابن عبّاس ﷺ من طُرق كثيرة، وحظي هذا القول بجملة من الآثار وأقوال المفسّرين دون غيره من الأقوال الأخرى، ونسبه ابن عطية إلى الجمهور[١١].

الثاني: آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨﴾ [البقرة:٢٧٨]، وقد رُوي هذا عن عمر بن الخطاب، وابن عبّاس ﷺ.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبير، كتاب التفسير، قوله تعالى: واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ٣٩/١٠، برقم (١٠٩٩١)، والطبري في تفسيره ٦٧/٥. وصحح الأثر الهيثمي في المجمع ٣٢٤/٦، والمحقق في تفسير الطبري – دار التربية ٤٠/٦، بحاشية رقم (١).

(٢) أخرجه ابن المنذر في تفسيره ٦٥/١، والبيهقي في دلائل النبوة، جماع أبواب كيفية نزول الوحي على رسول الله ﷺ، باب آخر سورة نزلت، وآخر آية نزلت ١٤٠/٧، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ١١٦/٢، إلى الفريابي وعبد بن حميد.

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٣٧٠، والطبري في تفسيره ٦٨/٥، ونقله ابن كثير في تفسيره ٥٠٣/٢، .

قلت: تحرف في فضائل القرآن إلى: «سبع ليال».

(٤) كذا قاله مقاتل بن سليمان في تفسيره ٢٢٨/١، ونقل عنه أبو حفص النسفي في التيسير ٥٢٠/١٥، وابن الجوزي في كشف المشكل من حديث الصحيحين ٤١٨/٢، فتحرف فيهما إلى: «سبع».

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧٠٣/٢، برقم (٣٢٣٦)، والبيهقي في دلائل النبوة، جماع أبواب كيفية نزول الوحي على رسول الله ﷺ، باب آخر سورة نزلت، وآخر آية نزلت ١٤٠/٧، والواحدي في التفسير البسيط ٤٨٢/٤. قلت: تحرف عند ابن أبي حاتم، والبيهقي: «تسع».

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ٣٣/٦، برقم (٤٥٤٤).

(٧) ينبوع الحياة ٢/١، سورة البقرة.

(٨) أخرجه الدارمي في سننه، المقدمة، باب في وفاة النبي ﷺ ٢١٦/١، برقم (٨٠)،وصحح الحديث الهيثمي في المجمع ٢٣/٩

(٩) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٢٠٤/٤، برقم: (٣٦٢٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب فضائل فاطمة بنت النبي عليها الصلاة والسلام ١٩٠٤/٤، برقم (٢٤٥٠)، عن عائشة ﷺ.

(١٠) ينبوع الحياة٥، سورة النصر.

(١١) انظر: المحرر الوجيز ٣٧٨/١.

الثالث: آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُ﴾ **[البقرة:٢٨٢]**، وقد رُوي هذا عن سعيد بن المسيّب(١) وغيره(٢).

والراجح –والله أعلم– أنّ هذه الآيات الثلاثة من سورة البقرة نزلت متتابعة، فهي بمثابة قول واحد، فكل راوٍ أخبر عن بعض آخر ما نزل من القرآن الكريم، فهي أواخر نسبية(٣).

الرابع: آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ **[آل عمران:١٩٥]**، وقد رُوي(٤) هذا عن أم سلمة ﵂(٥). والراجح –والله أعلم– أنّها آخر آية نزلت في شأن النساء، أو آخر بعد ما كان ينزل في الرجال خاصة(٦).

الخامس: آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ٩٣﴾ **[النساء:٩٣]**(٧)، وقد رُوي هذا عن ابن عبّاس ﵄(٨). والراجح –والله أعلم– أنّها آخر ما نزل في قتل المؤمن عمدًا، فهي آخرية مقيدة(٩).

السادس: آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾ **[النساء:١٧٦]**(١٠)، وقد رُوي هذا عن البراء بن عازب ﵁(١١). والراجح –والله أعلم– أنّ الآية الكلالة آخر ما نزل في المواريث(١٢).

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٦٨/٥، والبيهقي في دلائل النبوة، جماع أبواب كيفية نزول الوحي ، باب آخر سورة نزلت، وآخر آية نزلت ١٤٠/٧.وصحح البيهقي إسناده، لكن أعله بالإرسال، قلت: هو ضعيف لأجل الإرسال، والله أعلم.

(٢) انظر: جامع البيان ٤١/٦، وأحكام القرآن للجصاص ١٦١/٤، والتسهيل لعلوم التنزيل ١٣٨/١، وتفسير القرآن العظيم ٧٢١/١، والإتقان ١٠٢/١.

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر ٢٠٥/٨، والإتقان١٠٢/١، ودراسات في علوم القرآن للرومي ص٢٣٧.

(٤) أخرجه الثوري في تفسيره ص٨٣، رقم (١٧٤)، وعزاه ابن كثير في تفسيره ٤٩٣/٢، والسيوطي في الدر المنثور ٤١٢/٢، إلى ابن مردويه. قلت: إسناده صحيح، ورجاله ثقات إلى أم سلمة.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم ١٩٠/٢، والدر المنثور ٤١٢/٢.

(٦) انظر الإتقان ١٠٥/١، والمدخل لدراسة القرآن الكريم ص١٢٤.

(٧) انظر: صحيح البخاري ٤٧/٦، والجامع لأحكام القرآن ٣٣٢/٥، وتفسير القرآن العظيم ٣٧٧/٢، والدر المنثور ٦٢٣/٢.

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، باب ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم ٤٧/٦، برقم (٤٥٩٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير ٢٣١٧/٤، برقم (٣٠٢٣).

(٩) انظر: الإتقان ١٠٤/١.

(١٠) جامع البيان ٤٣٤/٩، والناسخ والمنسوخ للنحاس ص٤٨٥، والنكت والعيون ٥٤٨/١، ومعالم التنزيل ٣١٧/٢، وتفسير القرآن العظيم ٤٨٢/٢، والبرهان في علوم القرآن ٢٠٩/١.

(١١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب يستفتونك، قل الله يفتيكم في الكلالة ٥٠/٦، برقم (٤٦٠٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفرائض، باب آخر آية أنزلت آية الكلالة ١٢٣٦/٣، برقم (١٦١٨).

(١٢) انظر: جامع البيان٥٢١/٩، وفتح الباري لابن حجر.

السابع: آخر ما نزل سورة المائدة[١]، وقد رُوي هذا عن عائشة ﵂[٢]. والراجح –والله أعلم– أنّها آخر سورة نزلت في الحلال والحرام، فلم تنسخ فيها أحكام[٣].

الثامن: آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ **[التوبة:١٢٨]**[٤]، وقد رُوي هذا عن أُبي بن كعب ﵁[٥]. والراجح –والله أعلم– أنّها آخر آية نزلت في سورة التوبة[٦].

التاسع: آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ **[الكهف:١١٠]** [٧]، وقد رُوي هذا عن معاوية بن أبي سفيان ﵁[٨]. والراجح أنّها ليست آخر آية نزلت من القرآن، لأنّ سورة الكهف كلّها مكية، ولعل مراد معاوية أنه لم ينزل بعد هذه الآية ما ينسخها ويغير حكمها، فهي محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة، فروى بالمعنى على ما فهمه[٩].

العاشر: آخر ما نزل سورة النصر[١٠]، وقد رُوي هذا عن عبد الله ابن عبّاس ﵄[١١]، والراجح –والله أعلم– أنّها آخر سورة نزلت بتمامها، أو أنّها آخر ما نزل مشعرًا بوفاة النبي ﷺ[١٢].

وعند التأمل في هذه الأقوال يجد الناظر أنّه ليس في هذه المسألة أحاديث مرفوعة إلى النبي ﷺ، إنّما آثار مروية عن الصحابة والتابعين، ولا يكاد يوجد –والله أعلم– اتفاق بين العلماء على ما آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق، فهي أواخر إضافية أو مقيّدة،

---

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس ص٣٥٨، والكشف والبيان ٥/٤، والكشاف ٦٠٢/١، وتفسير القرآن العظيم ٥/٢، والإتقان ١٠٤/١.

(٢) أخرجه أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ، باب شهادة أهل الكتاب ص١٦١، برقم (٣٠٢)، وأحمد في مسنده، مسند النساء، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق ٣٥٣/٤٢، برقم (٢٥٥٤٧)، والنسائي في الكبير، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: اليوم أكملت لكم دينكم ٧٩/١٠، برقم (١١٠٧٣)، وصحح الحديث الحاكم ووافقه الذهبي، والأرناؤوط في مسند أحمد ٣٥٣/٤٢.

(٣) انظر: نزول القران الكريم للشايع ص٦٤، والمدخل لدراسة القرآن الكريم ص١٢٣.

(٤) جامع البيان ٥٨٨/١٤، وتفسير ابن أبي حاتم ١٩١٩/٦، والكشف والبيان ١١٥/٥، وزاد المسير ١٣/١، والبرهان في علوم القرآن ٢٠٩/١.

(٥) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند، مسند الأنصار، حديث عبد الله بن عباس عن أبي بن كعب ٤٢/٣٥، برقم (٢١١١٣)، والشاشي في مسنده، ما روى أبي بن كعب ٣١٠/٣، برقم (١٤١٤)، والبيهقي في دلائل النبوة، جماع أبواب كيفية نزول الوحي على رسول الله ﷺ، باب آخر سورة نزلت، وآخر آية نزلت ١٣٩/٧.

وصحح الأثر الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وحسنه الأرناؤوط في مسند أحمد ٤٢/٣٥، بحاشية رقم (٢).

(٦) انظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم ص١٢٣.

(٧) انظر: جامع البيان١٣٦/١٨، والكشف والبيان٢٠٤/٦، والمحرر الوجيز٥٤٧/٣، وزاد المسير ١١٥/٣، وتفسير القرآن العظيم٢٠٨/٥، والإتقان١٠٤/١.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره ٤٤١/١٥، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤٧٥/٥ إلى ابن مردويه. وصحح الأثر الهيثمي في المجمع ١٤/٧، ، وموسوعة فضائل سور وآيات القرآن ٢٤٤/١، تحت رقم (٩٧).

(٩) انظر: تفسير القرآن العظيم٢٠٩/٥.

(١٠) انظر: معالم التنزيل٣١٧/٢، وزاد المسير ٥٠١/٤، وتفسير القرآن العظيم٥١١/٨، والجامع لأحكام القرآن٢٢٩/٢٠، والبرهان في علوم القرآن٢١٠/١.

(١١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التفسير ٢٣١٨/٤، برقم (٣٠٢٤).

(١٢) انظر: الإتقان ١٠٤/١، والمدخل لدراسة القرآن الكريم ص١٢٣.

فيحمل الخلاف، وتعدّد الأقوال على أنّ كلّ راوٍ أخبر بما عنده من العلم، أو أن تنزل آخر آية تلاها الرسول ﷺ مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم ما نزل معها وتلاوتها على الصحابة، فيظن السامع أنّه آخر ما نزل في الترتيب، فيخبر بذلك[1].

(١) انظر الانتصار للقرآن ٢٤٥/١، ودلائل النبوة للبيهقي ١٣٩/٧، والبرهان في علوم القرآن ٢٠٩/١.

المبحث الثالث: أوائل وأواخر مخصوصه فيما نزل من القرآن.

المطلب الأول: أوائل مخصوصه فيما نزل من القرآن.

اعتنى العلماء بذكر أوّل ما نزل من القرآن الكريم بصورة مخصوصة في عدد من الحالات، وقد أشار ابن ظفر إلى بعض الآيات والسور التي قيل فيها من أوائل ما نزل في شأن أمرٍ من الأمور، وذلك في أربعة مواضع، وهي:

أولاً: سورة البقرة

أشار ابن ظفر إلى أنّ سورة البقرة من أول ما نزل بالمدينة، فقال: «السورة التي تذكر فيها البقرة مدنية من أوائل ما نزل بالمدينة»(١)، وقد اختلف العلماء في أوّل سورة نزلت بالمدينة، فذهب جلّ المفسّرين إلى أنّ أوّل سورة نزلت بالمدينة هي سورة البقرة(٢)، بل نقل ابن حجر الاتفاق على ذلك(٣)، وفي دعوى الاتفاق نظر(٤)، لأنّه ثبت عن ابن عبّاس ﷺ، أنّه قال: «أوّل ما نزل بالمدينة سورة المطففين»(٥)،(٦).

ثانيًا: سورة الأنفال

أشار ابن ظفر إلى أنّ من أوائل ما نزل بالمدينة سورة الأنفال، فروي عن ابن عبّاس ﷺ، عن عثمان بن عفّان ﷺ، أنّه قال: «وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة»(٧)،(٨)، وقد ذكر عامة المفسّرين ما رُوي عن ابن عبّاس ﷺ عند تفسير سورة التوبة، وما الذي حمل الصحابة على ألَّا يفصلوا سورة الأنفال والتوبة بالبسملة كسائر سور القرآن الكريم؟(٩).

والراجح –والله أعلم– أن يجمع بين القولين، فيقال: إنّ من أوائل ما نزل بالمدينة: سورة البقرة والمطففين والأنفال بصورة مخصوصة من حيث مكان النزول.

---

(١) ينبوع الحياة١، سورة البقرة.

(٢) انظر: الكشف والبيان ١٣٥/١، والجامع لأحكام القرآن ١٥٢/١، والتسهيل لعلوم التنزيل ٦٨/١، والدر المنثور ٤٦/١، والتحرير والتنوير ١٤٣/٣.

(٣) انظر: فتح الباري ١٦٠/٨.

(٤) انظر: الإتقان ٩٦/١.

(٥) أخرجه ابن مردويه في التفسير –كما نقله السيوطي في الدر المنثور ٤٤١/٨–.

قلت: هو معلق، ولم أجد له إسنادا، فهو ضعيف.

لكن يؤيده ما روي عن عكرمة عن ابن عباس ﷺ أنه قال: «لما قدم نبي الله ﷺ المدينة، فكانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله ﷻ: {ويل للمطففين} [المطففين: ١]، فحسنوا الكيل بعد ذلك»، وصحح إسناده الحاكم، ووافقه الذهبي،

(٦) انظر: المحرر الوجيز ٤٤٩/٥، وتفسير القرآن للسمعاني ١٧٧/٦، وأحكام القرآن لابن الفرس ٦١٣/٣، والدر المنثور ٤٤١/٨، والتحرير والتنوير ١٨٧/٣٠.

(٧) جزء من حديث طويل، أخرجه أحمد في مسنده، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس ٥٢٩/١، برقم (٤٩٩)

(٨) ينبوع الحياة١، سورة براءة.

(٩) انظر: جامع البيان ١٠٢/١، وتفسير السمرقندي ٣٧/٢، وتفسير القرآن للسمعاني ٢٨٤/٢، وزاد المسير ٢٣١/٢، والجامع لأحكام القرآن ٦٢/٨، والدر المنثور ١١٩/٤.

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ **[الحج:٣٩]**، قال ابن ظفر: «قال ابن عباس: هذه أُولى آية نزلت في القتال»(١)،(٢)، وقد اختلف العلماء في أوّل آية نزلت في القتال، فرُوي عن أبي بكر الصديق ﷺ: «أنّ أوّل آية نزلت في القتال قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ﴾ **[الحج:٣٩]**»(٣)،(٤)، ونسب السمعاني هذا القول لأهل التفسير(٥)، بينما رُوي عن الربيع بن أنس وغيره: «أنّ أوّل آية في شأن القتال قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ **[البقرة:١٩٠]**»(٦)،(٧)، ونسبه أبو حيّان إلى أكثر علماء التفسير(٨).

والراجح -والله أعلم- أنّ أوّل آية نزلت في القتال بعد الهجرة قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ **[الحج:٣٩]**، وإن لم يكن أحد وقت نزولها، ثم نزل قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ **[البقرة:١٩٠]**، لأنّ آية الإذن في القتال مكيّة، وآية البقرة مدنية متأخرة(٩).

رابعًا: قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ **[التوبة:٤١]**، قال ابن ظفر: «قيل: هذه الآية أوّل ما نزل من هذه السورة»(١٠)، وقد اختلف العلماء في أوّل ما نزل من سورة التوبة، فرُوي عن أبي الضحى مسلم بن صبيح: «أنّ أول ما نزل من سورة التوبة قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا

---

(١) جزء من حديث طويل، أخرجه أحمد في مسنده، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس ٣٥٨/٣، برقم (١٨٦٥)

(٢) ينبوع الحياة٣، سورة الحج.

(٣) نسب هذا القول إلى أبي بكر ﷺ: الكيا الهراسي في أحكام القرآن ٨٠/١، وابن الجوزي في زاد المسير ١٥٤/١، وابن الفرس في أحكام القرآن ٢٢٤/١، والقرطبي في تفسيره ٣٤٧/٢. قلت: لم يثبت التصريح بذلك عن أبي بكر ﷺ، وإنما ورد ذلك من قول ابن عباس مدرجا في رواية أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال: «أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن، فنزلت: {أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير} [الحج: ٣٩] قال: «فعرف أنه سيكون قتال»، أخرجه أحمد في مسنده، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس ٣٥٨/٣، برقم (١٨٦٥).

(٤) انظر: جامع البيان ٦٤٤/١٨، ومعاني القرآن للزجاج ٤٣٠/٣، وتفسير القرآن العظيم ٥٢٤/١، والدر المنثور ٥٨/٦.

(٥) انظر: تفسير القرآن للسمعاني ٤٤١/٣.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٨٩/٣، وابن أبي حاتم في تفسيره ١٩٩/٢، برقم (٨٩٤)، ونقله الجصاص الرازي في أحكام القرآن ٣١٢/١، وابن كثير في تفسيره ٨٢/٢.

وضعف المحقق إسناده في تفسير ابن أبي حاتم ١٩٩/٢، تحت رقم (٨٩٤)، وقال المحقق في تفسير ابن كثير ٨٢/٢، «إسناده جيد»، قلت: فيه أبو جعفر الرازي، قال عنه الحافظ في التقريب ص٦٢٩: «صدوق سيء الحفظ»، فالأثر ضعيف لأجله

(٧) انظر: جامع البيان ٥٦١/٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٣٢٥/١، والكشف والبيان ٨٧/٢، والتفسير البسيط ٦٢١/٣، ومعالم التنزيل ٢١٣/١.

(٨) انظر: البحر المحيط في التفسير ٢٤١/٢.

(٩) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ١٤٤/١، وتفسير القرآن العظيم٥٢٤/١.

(١٠) ينبوع الحياة٢، سورة براءة.

وَثِقَالًا ﴾ **[التوبة:٤١]**»[١]، كما أشار إليه ابن ظفر[٢]، بينما رُوي عن مجاهد أنّه قال: «أوّل ما نزل من سورة التوبة قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ **[التوبة:٢٥]**»[٣].

والراجح –والله أعلم– أنّ أوّل ما نزل من سورة التوبة، قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾، لأنّ قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾وما بعدها من الآيات نزل بعد حنين، وأما قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ ، فالظاهر أنّه نزل في تبوك، وحنين متقدّمة على تبوك[٤].

المطلب الثاني: أواخر مخصوصه فيما نزل من القرآن.

أشار ابن ظفر إلى عدد من الآيات التي عدّها العلماء من أواخر ما نزل من القرآن الكريم نزولاً مخصوصًا بأمر من الأمور، وذلك في أربعة مواضع، وهي:

أولاً قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٧٨]

قال ابن ظفر: «روي لنا ما رواه البخاري بإسناده إلى ابن عباس قال: آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا، فلعله يعني آخر آية تضمنت حكمًا شرعيًّا»[٥]، وقال أيضًا: «روي لنا حديث أبي إسحاق عن البراء بن عازب السابق... وأظنه إن شاء الله أراد آخر آية نزلت مفردة أو آخر آية من آيات الأحكام»[٦]، وقد سبق في آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق[٧]، والراجح –والله أعلم– أنّ نزول الآية مقيّدًا بآخر آية نزلت مفردة أو آخر آية من آيات الأحكام كما أشار إليه ابن ظفر.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٤٧٥/١١، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٢٠٨/٤ إلى الفريابي وأبي الشيخ.

قلت: وإسناد ابن أبي شيبة صحيح إلى أبي الضحى، وقد صححه أيضا المحقق في الاستيعاب في بيان الأسباب ٢٧٨/٢، بحاشية رقم (٢)، فهو مرسل صحيح الإسناد، والله أعلم.

(٢) انظر: جامع البيان ٢٦٩/١٤، وتفسير السمرقندي٦١/٢، والجامع لأحكام القرآن١٤٩/٨، وتفسير القرآن العظيم١٥٦/٤، والدر المنثور٢٠٨/٤.

(٣) أخرجه ابن مجاهد في تفسيره ص٣٦٧، والطبري في تفسيره ٤٧٥/١١، وابن أبي حاتم في تفسيره ٣٥١/٨، برقم (٩١٥)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ١٥٨/٤، إلى ابن أبي شيبة، وسنيد، وابن حرب، وابن المنذر.

قلت: أما إسناد ابن أبي حاتم: فجميع رجاله ثقات، سوى حجاج بن حمزة، فقال أبو حاتم: صدوق، ووثقه الخليلي.

(٤) انظر: جامع البيان٢٥٣/١٤، وأسباب النزول للواحدي ص٢٤٦، والإتقان١٠٠/١، والمدخل لدراسة القرآن الكريم ص١٣٠.

(٥) ينبوع الحياة١، سورة البقرة.

(٦) ينبوع الحياة٢، سورة النساء.

(٧) انظر: فتح الباري لابن حجر ٢٠٥/٨، والإتقان١٠٢/١، ودراسات في علوم القرآن للرومي ص٢٣٧.

ثانيًا قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦].

قال ابن ظفر: «روي لنا عن البراء بن عازب أنه قال: إنّ آخر آية أنزلت آية الكلالة»[١]، وقد سبق أيضًا في آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق، والراجح -والله أعلم- أنّ نزول الآية مقيّدًا بالمواريث[٢].

ثالثًا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨]

قال ابن ظفر: «هذه الآية والتي تليها مكيتان، فنقل عن أبي بن كعب أنه قال: «هما آخر القرآن عهدًا بالسماء»[٣]، فهما عنده مدنيتان»[٤]، وقد سبق في آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق، والراجح -والله أعلم- أنّ نزول الآية مقيّدًا بآخر آية نزلت من سورة التوبة.

رابعًا: سورة التوبة. قال ابن ظفر: «عن البراء بن عازب أنه قال: «إن آخر سورة أنزلت تامة سورة التوبة»[٥]، وقال أيضًا: «وبراءة من آخر القرآن نزولاً»[٦].

---

(١) ينبوع الحياة٢، سورة النساء.

(٢) انظر: جامع البيان٥٢١/٩، وفتح الباري لابن حجر.

(٣) أخرجه – نحوه – ابن الضريس في فضائل القرآن، باب كيف أنزل القرآن؟ وفي كم أنزل؟ ص٧٣، برقم (١٢٤)، والطبري في تفسيره ١٠٢/١٢.

(٤) ينبوع الحياة٢، سورة براءة.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حج أبي بكر بالناس سنة تسع ١٦٧/٥، برقم (٤٣٦٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفرائض، باب آخر آية أنزلت آية الكلالة ١٢٣٧/٣، برقم (١٦١٨)، واللفظ لمسلم.

(٦) ينبوع الحياة٢، سورة براءة.

الخاتمة:

الحمد لله على تمام النعمة وبلوغ المنة، وأسأله تعالى القبول والمثوبة، وفيما يلي أهم النتائج:

١-تبين أن ابن ظفر يقرر على أن الوحي يشمل السنة النبوية، حيث أن السنة تُبين وتفسر النصوص القرآنية.

٢-ينقسم نزول الوحي إلى صور متعددة عند ابن ظفر، منها مجيء جبريل في صورته الحقيقية أو في صورة رجل، حيث كان النبي يتلقى الوحي في كلا الحالتين.

٣-يعتبر ابن ظفر أن أول ما نزل من القرآن هو سورة العلق، مستندًا إلى روايات مختلفة.

٤-أشار ابن ظفر إلى عدة آيات وسور تُعتبر من أوائل ما نزل في مجالات معينة، مثل آيات القتال وآيات المواريث، كما تناول أواخر ما نزل من القرآن بطريقة مماثلة.

ومن التوصيات:

١. أوصي بدراسة علوم القرآن كل علم بمبحث مستقل ودراسة متخصصة كبحوث ترقية، ورسالة د. صالح الفايز جاءت بدراسة علوم القرآن عند ابن ظفر بشكل عام.

هذا والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المراجع:

١. الإتقان في علوم القرآن، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م،

٢. أحكام القرآن، المؤلف: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء:٤.

٣. أسباب النزول، تأليف : أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري.، الناشر : مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع.

٤. البرهان في علوم القرآن، المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

٥. تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، ت: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: ٢ ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م

٦. تفسير القرطبي، المؤلف : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله، أعاد طبعه دار احياء التراث العربي بيروت – لبنان ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م

٧. جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م

٨. جمهرة اللغة المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ) المحقق: رمزي منير بعلبكي الناشر: دار العلم للملايين – بيروت الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م

٩. الدر المنثور في التفسير بالماثور، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، تحقيق: مركز هجر للبحوث، الناشر: دار هجر – مصر، سنة النشر: ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

١٠. الزاهر في معاني كلمات الناس، المؤلف: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري (المتوفى: ٣٢٨هـ)، ت: د. حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: ١، ١٤١٢ هـ –١٩٩٢

١١. صحيح البخاري – الجامع الصحيح المختصر، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الناشر: دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، ط٣، ١٤٠٧ – ١٩٨٧، ت: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة – جامعة دمشق، مع الكتاب: تعليق د. مصطفى ديب البغا.
١٢. صحيح مسلم، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
١٣. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، ت: عبد الرزاق المهدي دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
١٤. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، دار النشر: دار الكتب العلمية – لبنان – ١٤١٣هـ– ١٩٩٣م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، عدد الأجزاء: ٥.
١٥. المدخل لدراسة القرآن، لمحمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، مكتبه السنة – القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ–٢٠٠٣م
١٦. الوحي والقرآن الكريم لمحمد حسين الذهبي، مكتبة الوهبة، ط١، ١٤٠٦هـ–١٩٨٦م،
١٧. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المؤلف : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، ت : إحسان عباس، الناشر : دار صادر – بيروت، الطبعة : ١ ، ١٩٧١
١٨. ينبوع الحياة، تأليف: محمد بن أبي محمد بن ظفر الصقلي [ت:٥٦٥هـ].